جغرافية الميثاق البرغماتي ورمزية القناع في قصة "منانة" للقاص المغربي عبد الفتاح كيليطو

مصطفى ولد يوسف●

الملخص:

في قصّة «منانة» عالم مشبع بالأنثوي والهامشي، وقيم الوهم،حيث موقع الإنسان في علاقته بالرأسمال المالي،لا في القيم النبيلة التي يحملها،وبالتالي فالمال هو معيار الفوق وكل ما هو غير ذلك ينتمي للدونية،وعبر الرأسمال المالي يستباح الممنوع في غياب الوعي الاجتماعي والإرث القيمي الأصيل.

Abstract:

Pragmatic charter Geography and Disguise Symbolization in "MANNANA" by the Moroccan Novelist ABd-El-fattah Kilitou The novel "The Reminder Woman" is a world saturated with feminization, marginalization and illusion values. In this world human relationship appears with capital not with genuine values. Therefore, money is the superior standard and what is not money is inferior. Through capital, whatever is prohibited is allowed in the absence of social consciousness and inherited values.

1- العنوان كملفوظ أنثوي.

تعددت وظائف العنوان في الحقل النقدي،وعند جمهور النقاد،فمنهم من يعتبر العنوان اسم العمل الأدبي،وهو بذلك له وظيفة تعيينية "Désignative"،أو استدعائية "Appellative"،كما هو الشأن عند"غريفل Grivèle" أو تميزية "distinctive" عند "غلودنشتاين goldenstien"[1].

● أستاذ محاضر أ،كلية الآداب و اللغات،جامعة البويرة

1- ينظر: ج: كوربيس وآخرون،الكشف عن المعنى في النّص السردي، تر: عبد الحميد بورايو، دار السبيل، الجزائر، د. ط، د. ت، ص249.

ويتميز عنوان قصّة عبد الفتاح كيليطو بكونه مرجعا اسميًا «منانة»،فهو بالتالي «ملفوظ خصوصي»[1]،فهذا المكّون الأحادي ذو قيمة تمييزية valeur distinctive،حيث تحيلنا هذه العتبة النصية إلى الموروث المحلي والمحمول الثقافي للمجتمع المغربي،فلفظة «منانة» «من المنّ ومن الفعل منّ،يمن منّا عليه: أي أنعم عليه نعمةُ. ويقال مَنّ الأمر فلانًا أي أضعفه وأعياه والمنّ هو الافتخار بالنعمة حتّى تكدّر»[2].

عند قراءتنا للقصة وجدنا أنّ لفظة «منانة» على الرغم من اكتسابها لمدلولات جديدة فرضها عالم القصّة،إلاّ أنّها لم تتخل عن مدلولاتها اللغوية،فشخصية «منانة» التي جاءت من عمق الريف،وجدت منزلاً تعمل فيه كخادمة،ومن ثمة التحرر من سلطة القهر الاجتماعي في عالم الريف الموبوء بالجهل والجوع والحرمان،ما لبثت تجاوزت عقبة المحظور ونسيت النعمة التي فيها: «يوم حضرت منانة إلى البيت أخضعتها أمي دون تأجيل لطقس عبور: ذرت على شعرها دواء ضد القمل،لما صفي القمل لم يعد لمنانة سوى عيب واحد كانت تحب السكر بإفراط...»[3].

لقد جعل القاص من عتبة «منانة» ذا وجود محصور في نوعية الأداء لهذه الشخصية،فهي من جهة محظوظة،لأنها انتقلت من عالم الآفاق الضيقة أو المنعدمة إلى الآفاق الرحبة،ولكنها تصطدم بجواب دال على فوقية الممارسة على حساب تحتية الانتماء الاجتماعي،وأقصد بالممارسة الفوقية إخفاق العلاقات الإنسانية بين السيد والمسود،حيث يخفق السيد في جدولة الرأسمال السلوكي الموروث من بيئة ريفية مسكونة بهاجس الجوع والحرمان «...لم يعد لمنانة سوى عيب واحد كانت تحب السكر بإفراط»[4].

تتحول دلالة «السكر» إلى رمزية سوسيولوجية،بوصفها تعبر عن رحلة الانتقال من جغرافية الحيف والعوز إلى جغرافية الإشباع،أي من المهمش إلى المهم،أمّا سيكولوجيًا،فهذه الدلالة حاملة للرغبة في الإشباع العاطفي والجنسي،بوصف «السكر» محظورًا «...كانت تحب السكر بإفراط، لذلك كانت أمي تصر على أنّ تظل هذه المادة دائمًا تحت القفل»[5].

1- كوربيس وآخرون،الكشف عن المعنى في النّص السردي ، ص250.
2- علي بن هادية وآخرون، القاموس الجديد، الشركة التونسية للتوزيع والمؤسسة الجزائرية للكتاب، ط1، 1984، ص1158.
3- عبد الفتاح كيليطو، منانة، تر: عبد الكبير الشرقاوي، منشورات مجموعة البحث في القصة، المغرب، ط1، 2013، ص319.
4- القصة، ص319.
5- م.ن، ص.ن.

لا ريب أنّ شخصية «منانة» منتمية للهامشي في المجتمع،ورغبتها في تحقيق ذاتها لابد لها من خرق العرف الذكوري،ويتمثل في التدخين: «...اكتسبت منانة عادة رديئة... في هذه الفترة بدأت تدخن على مثال خادمة الجيران»[1]،فيصبح التدخين مقترنًا بالحميمي « l'intime»،والسري « le secret». «والسر ليس في حد ذاته،بل سر من خلال الطبقات التي تراكمت فوقه بفعل الرقابة: والقوانين التي تحده»[2]،وبالتالي فإنّ هذا الفعل غير الطبيعي باعتبارها أنثى أفضى إلى محاولة تهشيم الصورة الشائعة أو النمطية التي تؤطر المرأة في إطار ثقافي محدود جدًا،يكون الفضول حكرًا على الرّجل: «... تتزود بالطبع من علب سجائر والدي وتصعد لتدخن على السطح... كان لم يتهم منانة فذلك بسبب اعتقاد راسخ... بأن امرأة لا ينبغي أن تدخن... بينما أنا بصفتي «رجلا» في المستقبل يمكن أن أنساق إلى الغواية»[3].

اقترن التدخين بالرجولة،ولا مجال للأنوثة لتعاطيه، وبالتالي لا يتداخل مركز اللذة والفضول بين الرجل والمرأة،فكل واحد منهما مركزه الخاص،ومن ثمة كان التدخين خطيئة تضاف إلى خطيئة السكر.

2- هوية الهامشي واختراق المحظور:

يشكل المحظور المعرفة الذاتية للكائن الهامشي،الفاقد لتراكم معرفي أو ثقافي، يؤسس عبره هوية خاصة والعاجز عن تخطي الطبقة المعدومة التي ينتمي إليها،فينشأ القهر العاطفي والاجتماعي،ولابد من تصريفه عبر اختراق المحظور «التدخين»،فتصبح تجربة التدخين علامة إسترجال،واتخاذ القرار «أحيانا كانت منانة تقطع تدخينها فوق السطح،وتندفع هابطة،ثم تخرج إلى الدرب،شخص ما كان يمر هناك في تلك اللحظة»[4].

يتحول التدخين إلى جرأة، فالكيان الأنثوي الريفي محاصر في مجتمع مغلق،يرسخ الشعور بالذنب في هذا الكيان المعزول والهامشي بفضل سلطة التقاليد والأعراف. وانتقال

منانة من جغرافية الهامش إلى جغرافية المكشوف،أو المعلن اكتسبت الثقة بالنفس

عبر سلوك الرفض أو المضاد «opposé»، فينفتح الخطاب السردي لمواد حكائية

مفرجة عنها،انطلاقا من فعل التدخين: «ذات جمعة لم ترجع منانة في المساء إلى البيت،علمنا بعد ذلك أنها قد تزوجت.. كلما جاءت لزيارة أمي كنت ألحظ فيها تحولا... كان لباسها أفضل...

1- م.ن، ص.ن.
2- محمد معتصم، المتخيل المختلف، منشورات الاختلاف، ط1، 2014، ص88.
3- القصة، ص 319-320.
4- القصة، ص 321.

صارت جميلة جدًا...»[1].

كانت هوية الأنثى عبئا لشخصية منانة،حيث الأنوثة مرادف للهامشي والمنبوذ وكان التدخين محاولة انتزاع صفة الرجولة لإعادة التوازن لكيانها، ومن ثمة الانتساب لهوية الذكورة دون إلغاء لأنوثتها، فهي بذلك تسعى إلى إعادة تشكيل خريطة وجودها كإنسانة منتمية للإنسانية لا ككائن هامشي وغير فضولي. وفي هذه الترسيمة يتضح ذلك:

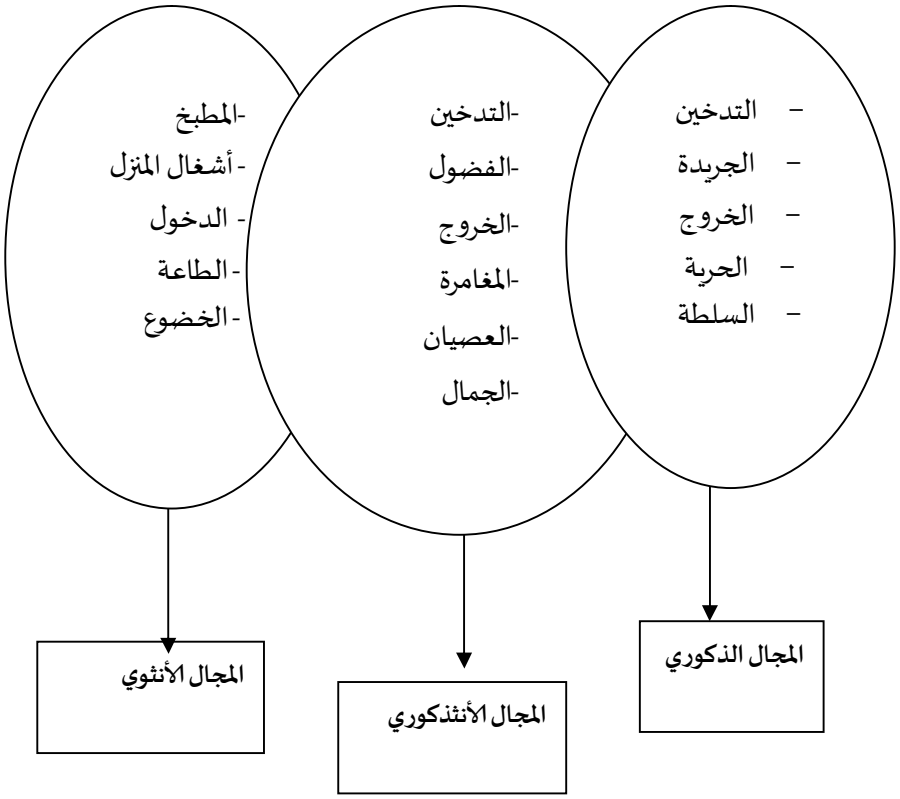

لقد اتخذ القاص من «تعاطي التدخين»، استعارة الخرق للتراتبية الاجتماعية في المجتمع العربي،وتوزيع الأدوار بين الرجل والمرأة،وفق ميثاق العرف.ونتيجة لانعدام الاعتراف بالمرأة المستلبة علميا واجتماعيا، يتحول «التدخين» إلى عامل تعويض عن الخيبة في زحزحة المنظومة السلوكية السائدة في المجتمع «البيت في الواقع مملكة المرأة وليس الرجل مقبولاً بداخله...»[2].

1- القصة ، ص322.
2- القصة، ص 321.

لقد مارست «منانة» حقّها في التأكيد على نضجها عبر خرق المحظور،فالنّاضج سيكولوجيا هو القادر على اتخاذ القرار وحده،وتحمل المسؤولية الكاملة في اختياراته تجاه نفسه والمجتمع[1].

وقد تجلت هذه الرغبة في النضج بمعزل عن الإسقاطات الذكورية على المرأة من خلال التدخين والخروج من المنزل بوصف «الخارجي» فضاء الرجولة، ويحتكره «...أحيانا كانت "منانة" تقطع تدخينها فوق السطح،وتندفع هابطة،ثم تخرج إلى الدرب»[2]،وفي موضع آخر «جاء اليوم الذي لم تعد فيه الخرجات الخفية تكفي منانة»[3].

أفضى هذا الاختراق إلى اكتساب الثقة بالنفس والاعتزاز بها «**estime de soi** » فهذا الاعتداد بالنفس في تعريف س.ش كولي « C.H.cooly » هو بناء اجتماعي، وتقييم ذاتي،ويشكل ما سمتها المرايا الاجتماعية « **miroirs sociaux** »[4]،فشخصية منانة عبر أسلوب التخفي – التدخين والخروج سرا- حاملة لمعنى العالم، ولا تستطيع أن تتعاطى علاقتها فيه إلاّ عبر القناع[5] عبر التخفي والمناورة،فتبقى شخصية مقنعة إلى أن تكتسب نضجها المالي لا البيولوجي أو الثقافي "...في كل زيارة منها (أي منانة) سيصاحبها زوجها ثم طفلاها بعد ذلك... صدمته شاحنة فقتلته... ولم تتداول أي حكاية لتخليد ذاكره... لم تعد منانة تذكره... ستحصل على المال الموعود... منذ هذا المصاب... كانت منانة تعود لزيارتنا ما إن تستقر في المطبخ حتى تخرج من حقيبة يدها عليه سجائر وتشرع في التدخين، تحت نظرة أمي المتسامحة"[6].

تنتقل شخصية "منانة" من التخفي إلى التجلي والواسطة الاستقلالية المالية،ومن ثمة تفضح الآليات الاجتماعية التي تتحكم في مصير الأنثى/المرأة التي تتخذ من العرف أداة قمع الطموح الأنثوي، ولكن عندما تتحول المرأة إلى رأسمال تخرج من دائرة عدم النضج،ويزول قناع العرف والإرث الاجتماعي،فمنانة انتقلت من شخصية القناع إلى شخصية إشكالية تتعاطى علاقة مأزومة مع العالم،وتحول بقية الشخصيات المحيطة إلى مرايا تعكس مظاهر متعددة لأزمتها"[7]،وبالمقابل يبقى القناع ملازما للمجتمع الرجالي المغلق،الذي يكرر خطابه المتناقض،وغير المنطقي تجاه الدوني (المرأة)،فيأبى أن يتحول من هيئة قمع إلى هيئة حوار،فتستمر تبعية الدوني للعلوي في جميع مناحي الحياة بغياب الاعتداد بالنفس والمجازفة.

---

1 voir : le petit Larousse de la psychologie, éd, Larousse, paris, France, p 114.

2- القصة، ص 321.

3- م.ن، ص322.

4 voir : le petit larouss de la psychologie, p298.

5- ينظر: محمد البارودي، إنشائية الخطاب في الرّواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2004، ص150.

6- القصة، ص322-323.

7- محمد البارودي، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، ص151.

في مسرودية القصّة نفي للآخر حتى يثبت جدارته عبر الارتقاء الاجتماعي بواسطة الرأسمال المالي، فتنهار تلك التقاطبية الموجودة بين الدوني والعلوي، فهذا الدوني الممثل بمنانة كان في البداية مكونا طبيعيا ساذجا،يعيش نقصا سيكولوجيا وبيولوجيا **carence psychologique et biologique**، وعلى الرغم من الحجز المادي "السكر" والنفسي "المحظورات" يكتسب صفة الحضور والانفلات عبر القناع "التدخين والخروج"،فيتحول الاستثنائي إلى العادي دون أن يفقد هويته الجنسية،ولمّا يهشم الصورة النمطية يعلن ميلاده ككائن متعال عبر الرأسمال المالي، فتتدحرج كل المنظومة العرفية منهارة أمام سلطة المال.

3- في حضرة الميثاق البراغماتي:

لا تختلف وضعة "منانة" بالوضعيات الإنسانية البائسة التي تعيش في رقعة عربية تحمل القناع،فهي تمثيل رمزي يحاكي السلطة بمفهومها الواسع فالذكورة تمثيل للحاكم المبجل في المتخيل العربي،لا يمكن زعزعة صورته،فهو ظل الله في الأرض كما يقول الباحث "سعيد يقطين"،ويستمد شرعيته من المقدس الديني أو من المقدس الثوري أو من المقدس العائلي أو المقدس العسكري،والأنوثة تمثيل للشعب أو المحكوم غير ناضج سياسيا،وعبر القناع المضاد يسعى إلى افتكاك حريته دون المواجهة العلانية والصريحة،فهو يغازل العلوي في الوقت نفسه يسعى إلى وضع الحدود لتدويل الخوف عبر خرق المحظور "التدخين،الخروج" لينتهي بالحاكم والمحكوم إلى الاتفاق البراغماتي،والتصالح الزائف،ولكن هذا الأمر لا يخص الجميع وإنما أصحاب المال الذين يتحالفون مع السلطة في ميثاق براغماتي،يصبح الدوني بفضل المال مشروع السلطة وأداتها.

لا ريب أنّ المكون المالي يرسخ نزعة التعالي،واستقطاب الآخر،فمنانة رمز الهامش في مجتمع القناع،تتحول إلى رمز الاستقطاب: "كانت أمي وسط العاصفة، وهي تصرح بأوامرها إلى منانة"[1]،فالهامشي يتحول إلى مستقطب في نهاية مسار النص: "كانت منانة تعود لزيارتنا... تخرج من حقيبة مسار يدها علبة سجائر، وتشرع في التدخين،تحت نظرة أمي المسامحة"[2]،إنها إشارات تبريرية وإكراهات الليبرالية على دخول الإنسان العربي مرحلة الميثاق البراغماتي،حيث تختفي القيم،وتبقى السلوكات الظاهرة وغير المقنعة للإنسان الحصيف العارف بنكوصية القيم الأصلية،فالقاص عبر نصّه يؤشر على موقف غياب مصداقية تصرّف المجتمع المغربي والعربي بصفة عامة،فما نراه ونحاكيه يوميا ما هو إلا وهم القيم الذي نتعاطى معه في سلوكاتنا،ومن ثمة يصطدم الإنسان الواعي أو المثالي بالميثاق البراغماتي،وبالتالي يصبح

1- القصة، ص 321.
2- م.ن، ص232.

شخصية مفارقة في علاقته بالمجتمع الذي ينتمي إليه.

لقد كشفت شخصية "منانة" عن هشاشة القيم، وحالة التأزم التي يعيشها الإنسان العربي، فكل هامشي مهما كانت طبيعة وجوده، وسبب التهميش،يمكن أن يحقق ذاته عبر الرأسمال المالي،فالمرأة العربية الحديثة فرضت وجودها الإنساني بعدما خرجت للعمل،ومن ثمة حققت الاستقلال المادي،ولكنّها ما زالت مكونا أنثويا قاصرا،وينظر إليها بهذا الصورة بسبب ترسبات الإرث العرفي الذي أصبح مجرد وسيلة لتأجيل الوثبة النفسية والاجتماعية والثقافية التي ينشدها المثقف النّزيه المدرك تماما مدى الاستلاب الاجتماعي الذي يؤطر منظومة قيم زائفة، وغير مؤكدة فعليا في واقعنا اليومي،فكان جراء ذلك انفصام الشخصية العربية،فالسلوك الظاهر مجرد واجهة،تخفي أوجها لا حصر لها من التناقضات وتصادم الرؤى،وحالات الإحباط،واليأس،ومشاهد التطرف والدمار النفسي والمادي الذي نعيشه الآن.

إحالات:

1- عبد الفتاح كيليطو، منانة، تر: عبد الكبير الشرقاوي، منشورات مجموعة البحث في القصة، المغرب، ط1، 2013.

2- محمد الباردي، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2004.

3- محمد معتصم، المتخيل المختلف، منشورات الاختلاف، ط1، 2014.

4- ج: كوربيس وآخرون، الكشف عن المعنى في النّص السردي، تر: عبد الحميد بورايو، دار السبيل، الجزائر، د. ط، د. ت.

5- علي بن هادية وآخرون، القاموس الجديد، الشركة التونسية للتوزيع والمؤسسة الجزائرية للكتاب، ط1، 1984.

6- Le petit Larousse de la psychologie, éd Larousse, paris, France, 2ème éd, 2016.